إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين

بقلم الدكتور: زغلول النجـار

هذه الآية الكريمة جاءت في منتصف سورة آل عمران، وهي سورة مدنية، ومن طوال سور القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها مائتي آية بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أسرة السيدة مريم ابنة عمران، أم نبي الله عيسى(على نبينا وعليه من الله السلام)
و من الآيات الكونية في سورة آل عمران التأكيد على حقيقة أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا.
ولكن قبل الشروع في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من كبار المفسرين " القدامى والمعاصرين " في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله(تعالى):
إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين*.(آل عمران٩٦)
* ذكر ابن كثير رحمه الله ما نصه:يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أي لعموم الناس، لعبادتهم ونسكهم، يطوفون به، ويصلون إليه، ويعتكفون عنده(للذي ببكة) يعني الكعبة التي بناها(رفع قواعدها) إبراهيم الخليل عليه السلام(وولده إسماعيل عليه من الله السلام)، ولهذا قال تعالى:(مباركا) أي وضع مباركا(وهدي للعالمين).
عن أبي ذر رضي الله عنه قال:قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال:المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال:المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة، قلت: ثم أي؟ قال:ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد(رواه أحمد، وأخرجه الشيخان بنحوه).
وعن على رضي الله عنه..... قال: كانت البيوت قبله ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله. وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض، مطلقا..(وهذا فهم رائع وسابق لزمانه بقرون طويلة على الرغم من إضافة ابن كثير قوله:والصحيح قول علي رضي الله عنه).
وقوله(تعالي):(للذي ببكة) فإن بكة من أسماء مكة على المشهور، قيل سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها، وقيل لأن الناس يتباكون فيها أي يزدحمون، قال قتادة:إن الله بك به الناس جميعا، فيصلي النساء أمام الرجال، ولا يفعل ذلك ببلد غيرها، وقال شعبة عن إبراهيم: بكة البيت و

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المسجد، وقال عكرمة: البيت وما حوله بكة وما وراء ذلك مكة وقال مقاتل بن حيان: بكة موضع البيت وما سوى ذلك مكة، وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة(مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، وأم القرى، والقادس لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والحاطمة، والرأس، والبلدة، والبنية، والكعبة).
* وجاء في تفسير الجلالين(رحم الله كاتبيه) ما نصه:(إن أول بيت وضع) متعبدا(للناس) في الأرض(للذي ببكة) بالباء لغة في(مكة) سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة، أي: تدقها، بناه الملائكة قبل خلق آدم، ووضع بعده الأقصى، وبينهما أربعون سنة كما في حديث الصحيحين، وفي حديث(أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن عمر موقوفا عليه): أنه أول ما ظهر على وجه الماء عند خلق السماوات والأرض زبدة(بفتح الزاي، أي: كتلة من الزبد) بيضاء فدحيت الأرض من تحته،(مباركا) حال من(الذي) أي: ذا بركة(وهدى للعالمين) لأنه قبلتهم.
* وذكر صاحب الظلال(رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه:... ثم يقرر أن الاتجاه للكعبة هو الأصل، فهي أول بيت وضع في الأرض للعبادة وخصص لها... وجعله مباركا وجعله هدي للعالمين..
* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن(رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) ما نصه:
.... إن أول بيت وضعه الله متعبدا للناس وقبلة للصلاة وموضعا للحج والطواف، سواء العاكف فيه والباد، لهو الكعبة....!،(ببكة) لغة في مكة، والميم والباء يتعاقبان لغة، كما في لازم ولازب،(مباركا) كثير الخير والنفع لمن حجه أو اعتمره، أو اعتكف فيه أو طاف حوله، لمضاعفة ثواب العبادة فيه؛ من البركة، وهي النماء والزيادة.
* وذكر كل من أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم وصاحب صفوة التفاسير(جزاهم الله خيرا) كلاما مشابها، لا أرى حاجة إلي تكراره هنا.

الدلالة العلمية للآية الكريمة

بعد مجاهدة طويلة استغرقت آلافا من العلماء، عبر عشرات من العقود ثبت لنا في منتصف الستينيات من القرن العشرين أن أرضنا في مرحلة من مراحل خلقها كانت مغمورة بالماء غمرا كاملا، لم يدع فيها شيئا مكشوفا من اليابسة، ثم شاءت إرادة الله(تعالى) أن يفجر قاع هذا المحيط الغامر بثورة بركانية عنيفة ظلت تلقي بحممها التي تراكمت فوق بعضها البعض مكونة سلسلة جبلية في وسط هذا المحيط الغامر، وظلت هذه السلسلة في النمو والارتفاع حتى ظهرت قمتها فوق سطح الماء مكونة أول جزء من اليابسة على هيئة جزيرة بركانية من مثل الجزر البركانية العديدة والمنتشرة في محيطات اليوم(جزر اليابان، الفلبين، إندونيسيا، هاواي، وغيرها)، وباستمرار عمليات النشاط البركاني نمت هذه الجزيرة الأولية بالتدريج بواسطة الثورات البركانية المتلاحقة التي أضافت إليها مساحات جديدة من اليابسة محولة إياها إلى قارة كبيرة تعرف باسم القارة الأم أو بانجيا (Pangaea) وهذا النمو بالإضافة على مراحل يعرف باسم الدحو الذي يعرف لغة: بالمد والبسط والإلقاء وهو تعريف دقيق لعمليات بناء الأرض بواسطة الثورات البركانية.
وبعد اكتمال تكون القارة الأم شاءت إرادة الله(تعالى) أن يمزقها بواسطة شبكة هائلة من الصدوع العميقة التي شكلت خسوفا أرضية غائرة، فصلت تلك القارة الأم إلى القارات السبع المشاهدة حاليا على سطح الأرض، والتي كانت في القديم أشد تقاربا إلى بعضها البعض ثم بدأت في الزحف والتباعد حتى وصلت إلى مواقعها الحالية على سطح الأرض والتي لا تزال في حركة دائبة منها اليوم.
هذه الظاهرة التي يتحول فيها جزء من المحيط إلى أرض يابسة، أو تنشق الأرض اليابسة لتحتوي محيطا فيما بينها تعرف باسم دورة المحيط واليابسة.
ويتم تحول المحيط إلى أرض يابسة بواسطة الثورات البركانية المتكررة من تحت قاع المحيط والتي ترتفع بجزء من ذلك القاع إلى ما فوق سطح الماء على هيئة جزر بركانية تظل تنمو بالتدريج متحولة إلى قارة، ثم بواسطة تصدع وخسف أجزاء من تلك القارة تنفصل إلى كتلتين متوازيتين يفصلهما بحر طولي شبيه بالبحر الأحمر، يظل يتسع باستمرار حتى يتحول إلى محيط.

ومن قبل ألف وأربعمائة سنة روي عن رسول الله(صلى الله عليه وسلم) قوله:كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض والحديث ذكره الهروي في غريب الحديث(٣/٣٦٢)، وذكره الزمخشري في الفائق في غريب الحديث(١/٣٧١) لأن دلالته العلمية سابقة لعصره بألف وأربعمائة من السنين.
و(الخشعة) أكمة لاطئة بالأرض، والجمع(خشع).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا الحديث النبوي الشريف يدعمه حديث آخر أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن عمر(رضي الله عنهما) موقوفا عليه: أنه(أي البيت الحرام) أول ما ظهر على وجه الماء عند خلق السماوات والأرض زبدة (بفتح الزاي، أي كتلة من الزبد) بيضاء فدحيت الأرض من تحته.
وهذان الحديثان الشريفان يعتبران سبقا علميا معجزا لرسول الله(صلى الله عليه وسلم) يشهد له بالنبوة وبالرسالة، وبأنه كان موصولا بالوحي، ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض، لأنه لم يكن لأحد من الخلق قبل منتصف الستينيات من القرن العشرين إدراك لشيء من هذه الحقيقة.

ويؤكد ذلك ما أشرنا إليه في مقال سابق عن توسط مكة المكرمة لليابسة، كما يحمل معنى أن اليابسة تحت الكعبة المشرفة تعتبر أقدم جزء من الغلاف الصخري للأرض على الإطلاق، وهو ما لم يحاول أحد إثباته بعد، وعلى علماء المسلمين أن يتحققوا من ذلك بتحديد العمر المطلق للصخور القائمة حول الكعبة المشرفة بواسطة العناصر المشعة الموجودة فيها حتى يمكن تقديم هذا الدليل إلى الناس جميعا "مسلمين وغير مسلمين " مما يعتبر وثيقة مادية ملموسة، وحجة منطقية دامغة على الناس كافة بنبوة هذا النبي الخاتم(صلى الله عليه وسلم).
ولعل في هذين الحديثين الشريفين ما يدعم قول السدي(رحمه الله) في تفسير قوله(تعالى):(إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدي للعالمين):أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقا....
فسبحان الذي أنزل القرآن بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه لنا بلغة وحيه، كلمة كلمة، وحرفا حرفا ليكون للعالمين نذيرا وصلى الله وسلم وبارك على النبي الخاتم الذي تلقاه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله ربه العالمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com